

الرحمن في وقته ، وتملك مصر ، والشام ، والشرق والكرك ،  
واليمن ، وبلاد الشرق وعارض الملوك والسلاطين ، وحاصر  
القلع ، وفتح البلاد ، وجند الاجناد ، وهذه الجراكسة التي هي  
اليوم ملوك مصر والشام ومحامي الحرمين الشريفين ، ممالك نسل  
وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل أبي  
المعالي ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، أبو  
الملوك الأيوبية . ( ٩٤ )

### وفاة جمال الدين الوزير

في شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، توفي الوزير جمال  
الدين محبوسا . وكان له نحو سنة مذ مرض فمضى لسبيله .

وكان عظيم القدر والخطر ، كريم الورد والصدر ، عديم النظير في  
سعة نفسه . لم يرو في كتب الأولين ، أن أحدا من الوزراء اتسعت  
ذفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين ، فلقد كان عظيم  
الفتوة ، كامل المروءة ، وسيرد من أخباره ماتعلم منها صحة قولي .

حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم - وهو رجل من  
الصالحين ، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه - قال : لم يزل  
جمال الدين مشغولا بأمور آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت  
أخشى أن انقل من الدست الى القبر . قال : فلما مرض ، قال لي  
بعض الايام : يا أبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار  
فعرفني ، قال : فقلت في نفسي ، قد اختلط عقله ، فلمنا كان الغد ،  
أكثر السؤال عن ذلك الطائر ، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد  
سقط ، فقلت له : جاء الطائر ، فاستبشر ثم قال : جاء الحق وأقبل  
على الشهادة وذكر الله تعالى ، وتوفي . فلما توفي طار ذلك الطائر ،  
قال : فعلمت أنه رأى شيئا في معناه . ودفن بالموصل نحو سنة .  
وكان قد قال للشيخ أبي القاسم : أن بيني وبين أسد الدين شيركوه

عهدا ، من مات منا قبل صاحبه حمله الحي إلى المدينة على ساكنها السلام ، فدفنه بها في التربة التي عملها ، فإذا أنامت فامض إليه وذكره فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في المعنى ، فاعطاه مالا صالحا ليحمله به إلى مكة والمدينة ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل وقدم مدينة تكون في الطريق ، وينادون في البلاد للصلاة عليه ، ففعلوا ذلك ، فكان يصل على في كل مدينة خلق كثير ، فلما كان بالحلة ، اجتمع الناس للصلاة عليه ، وإذا شاب قد ارتفع على موضع عال ، ونادى بأعلى صوته ملعلعا يقول :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما  
سرى جوده فوق الركاب ونايله

يمر على الوادي فتثني رماله  
عليه وبالنادي فتبكي أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم . ثم وصلوا به إلى مكة ، وطافوا به حول الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم وحملوه إلى المدينة وصلوا عليه أيضا . ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها ، بينه وبين قبر النبي ، نحو خمسة عشر ذراعا .

## في ذكره شيء من أخباره رحمه الله

كان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال ، رحيفا بالناس متعظفا عليهم ، عادلا فيهم ، فمن أعماله الحسنة ، أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى ، وغرم عليه أموالا جزيلة عظيمة وبني الحجر بجانب الكعبة ، ورأيت اسمه عليه ، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وزخرف الكعبة بالذهب والذقرة ، فكل ما فيها من ذلك ، فهو عمله

إلى سنة تسع وستمائة . ولما أراد ذلك ، أرسل إلى الامام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أنن له فيه ، وأرسل إلى أمير مكة ، عيسى ابن أبي هاشم ، خلعا سنية وهدية كثيرة حتى مكنه .

وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات ، وعمل الدرج التي يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم .

وعمل بعرفات مصانع للماء ، وأجرى الماء إليها من نعمان ( ٩٥ ) في طرق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلاس ، ففرم على ذلك مالا كثيرا ، وكان يعطى أهل نعمان كل سنة مالا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحاج بعرفات ، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة .

ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا ، أنه بنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور تنهبها الأعراب ، وكان أهلها في ضنك وضر معهم ، رأيت بالمدينة انسانا يصلي الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا في ضر وضيق ، ونكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحدنا مايواري عورته ، ولا مايشبع جوعته ، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء ، فاستغينا فكيف لاندعو له وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته : اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور ، محمد بن علي بن أبي منصور . فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخرا ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الارض وغربها .

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء سوى الادارات والتعهدات ، قال : كان له كل يوم مائة دينار يتصدق بها على باب داره .

ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها ، الجسر الذي بناه



وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل ، قال : أحضرتني الشيخ وقال لي : إنطلق إلى مسجد الوزير - وهو بظاهر الموصل - واقعد هناك ، وإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصافي والخام ، وإذا جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ، ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدد كثير من الجمال ، فقال لي : تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة ، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا أحضر لك فلانا العربي توصل ( إليه ) هذه الرزمة الاخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربي توصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها السلام ، توصل إلى وكيلي فلان هذه الاحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليها اسم المدينة ليخرجها بمقتضى ما في هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدق به وكيلي بها على ما في هذه الجريدة الأخرى .

قال : فسرنا كذلك إلى وادي القرى ، فرأينا به نحو مائة جمال تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها ، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري - والصاع خمسة عشر رطلا بالبغدادي - فلما رأوا الطعام والمال ، اشتروا كل سبعة أصوع بدينار ، فضج أهل المدينة بالدعاء له ، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا ،

وحكى لي والدي ، قال : رأيت جمال الدين بالرقعة ، وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيرا وطلب شيئا ، وتردد إليه عدة أيام ثم انقطع ، فسأل عنه ، فقيل إنه سافر ، فشق ذلك عليه ، ثم قال : هكذا تنصرف الأحرار عن أبواب الكلاب ، وكرر ذلك غير مرة ، ثم سأل عنه فقيل : إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين ، ولو رمت شرح مبادئ أعماله لأطلت واضجرت وهي ظاهرة لاحتاح إلى بيان ، فلها تركنا أكثرها .

## ذكر فتح قلعة بانياس

في سنة ستين وخمسائة فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، فأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها ، فسار نور الدين مجدا إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة الممانعين عنها ، ونازلها وضيق عليها وقتلها ، وكان في جملة عسكره أخوه نصر الدين أمير أميران ( ١٤٦ - ب ) فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه . فلما راه نور الدين قال له : لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت زهاب الأخرى ، وجد في حصارها ، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها ، على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرههم ، فملك القلعة وملاها نخائر وعدة ورجالا .

وعاد نور الدين إلى دمشق ، وفي يده خاتم بفس ياقوت من أحسن الجواهر ، فسقط من يده في شعراء بانياس - وهي كثيرة الأشجار ملتفة الاغصان - فلما أبعاد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به ، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه ، وقال : أظن أنه هناك ضاع ، فعادوا إليه فوجدوه ، فقال بعض الشعراء الشاميين ، أظنه ابن منير من أبيات يمدحه ويهنئه بهذه الغزاة وعود الجبل الياقوت . شعر :

إن يمتد الشكاك فيك بانك المـ

ـ هدي مطفي جمرة الدجال

فلعودة الجبل ( ٩٧ ) الذي أضلته

بالامس بين غياطل وجبال

مسترجعا لك بالسعادة آية

ردت مطال الفال غير مطال

- ٦٥١٥ -

لم يعطها إلا سليمان وقد  
نلت الرباء بموشك الاعجال  
زجر جرى لسرير ملكك إنه  
كسريه عن كل حد عال  
فلو البحار السبعة استهوينه  
وأمرتهن قذفنه في الحال ( ٩٨ )

ولما فتح الحصن ، كان ولد معين الدين أنر - الذي سلم بانياس  
إلى الفرنج - قائماً على رأسه ، فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا  
الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأن اليوم  
برد الله جلدة والدك من نار جهنم .

### ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله

في سنة إحدى وستين وخمسائة ، سار نور الدين إلى حصن  
المنيطرة ( ٩٩ ) - وهو أيضاً للفرنج - ولم يحشد له ولا جمع  
عساكره ، إنما سار على غرة من الفرنج ، وعلم أنه إن جمع  
العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهاز الفرصة وسار إلى المنيطرة  
وحصرها ، وجد في قتالها وأخذها عذوة وقهرا ، وقتل من بها وسبى  
وغنم غنيمة كثيرة لآمن من بها فأخذتهم خيل الله ( بغتة وهم  
لا يشعرون ) ( ١٠٠ ) ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا  
وقد ملكه ، ولو علموا أنه جريده لآسرعوا إليه ، إنما لم يظنوا إلا أنه  
في جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه .

### ذكر عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة أخرى

في ربيع الآخر من سنة اثنتين وستين وخمسائة ، عاد أسد الدين  
وسار إلى مصر . وكان بعد عوده من مصر ، لا يزال يحدث نفسه

بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها ، يتحدث به مع كل من يثق إليه . وكان مما يهيجه على العود ، زيادة حقه على شاور وما عمل معه . فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها ، وسير معه الملك العادل نور الدين محمود جماعة من الأمراء ، فجد في السير على البر ، وترك بلاد الفرنج عن يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية ، فقصد إطفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، وتصرف في البلاد الغربية ، وأقام بها نيفا وخمسين يوما .

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين ، قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم ، فأتوه على الصعب والذلول ، فتارة يحدثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير ، وتارة يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر النوري ، فجدوا على الاسراع في المسير ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم ، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد ، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين ، وسارت العساكر المصرية والفرننج ورائه ، فادركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الاولى ، وكان قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجددهم في طلبه ، فعزم على لقائهم وقتالهم وأن تحكم السيوف بينه وبينهم ، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر ، الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة ، لقله عددهم وبعدهم عن بلادهم ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا - وهو الذي لاشك فيه - فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي ، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا ، ويحق لعسكر عدتهم ألفا فارس - قد بعدت ديارهم ونأى ناصرهم - أن ترتاع من عشرات ألوف ، مع أن كل أهل البلاد عدو لهم . فلما قالوا ذلك ، قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين بزغش - وكان من الشجاعة بالمكان المشهور - وقال : من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحا أو في بيته

مع النساء ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلا عذر تعذرون فيه ليأخذن إقطاعكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه مذ خدمتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرقون من عدوهم ، وتسلمون مثل الديار المصرية تتصرف فيها الكفار ، فقال اسد الدين : هذا رأيي وبه أعمل ، ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم كثر المواقفون لهم على القتال . فاجتمعت الكلمة على اللقاء ، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرننج وهو على تعبئة ، وقد جعل الاثقال في القلب يتكثر بها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فتنهبها أهل البلاد . ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولئن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب ، فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه ، فاذا حملوا عليكم ، فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم . واختار من شجعان أصحابه جمعا يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابل الطائفتان ، فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظنا منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم فتبعوهم ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على القلب - من المسلمين والفرنج - فهزموهم ووضع السيف فيهم فأخذن الجراح ، وأكثر القتال والاسر وانهزم الباقون . فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب ، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس بها منهم بيار ، فانهزموا أيضا . وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ، أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

### ذكره ملك أسد الدين ثغر الاسكندرية

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبابين سار إلى ثغر الاسكندرية ، وجبى ما في طريقه من القرايا والسواد من الاموال ،

ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بغير قتال ، سلمها أهلها إليه .  
فاستتاب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجبى  
أمواله ، وأقام به حتى صار شهر رمضان .

وأما المصريون والفرننج فإنهم عادوا الى القاهرة وجمعوا  
أصحابهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، واستكثروا وحشدوا  
وساروا إلى الاسكندرية - وبها صلاح الدين - في عسكر يمنعونها  
منهم ، فقد أعانهم أهلها خوفا من الفرنج . فاشتد الحصار ، وقل  
الطعام بالبلد ، فصبر أهله على ذلك .

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم - وكان شاور قد  
أفسد بعض من معه من التركمان - ووصلته رسال المصريين  
والفرننج يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما  
أخذه من البلاد ، فأجابهم إلى ذلك . وشرط أن الفرنج لا يقيمون  
بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة ، وأن الاسكندرية تعاد إلى  
المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام ، فوصل  
دمشق ثامن عشر ذي القعدة ، وتسلم المصريون الاسكندرية في  
النصف من شوال .

وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين ، أن يكون لهم  
بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملك العادل  
نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ، ويكون للفرننج من دخل مصر كل  
سنة مائة ألف دينار . هذا جميعه يجري بين الفرنج وشاور . وأما  
العاقد صاحب مصر فليس له من الأمر شيء ، ولا يعلم بشيء من  
ذلك ، قد حكم شاور عليه وحجبه . وعاد الفرنج إلى بلادهم ،  
وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على  
القاعدة المذكورة .

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل الملك العادل نور الدين مع  
شهاب الدين محمود الحارمي - وهو من اكابر أمراءه ، وخال

صلاح الدين يوسف - ينهي محبته وولائه ، ويسأله أن يأمره بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته ويجمع كلمة الاسلام ، وبذل مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا ، فبقي الامر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

## عصيان غازي

في هذه السنة عمى الامير غازي بن حسان المنبجي ( صاحب منبج ) بها على نور الدين - وكان هو اقطعه إياها - فأرسل إليه نور الدين عسكريا حصره بها وأخذها منه ، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عاقلا خيرا حسن السيرة ، فبقي بها إلى أن أخذها صلاح الدين منه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

## ذكر مفارقة زين الدين الموصل ووفاته وولاية فخر الدين عبد المسيح قلعة الموصل

في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، سار زين الدين علي بن بكتكين ، نائب اتابك قطب الدين عن الموصل ، إلى إربل ، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى اتابك قطب الدين ، فمن ذلك سنجار ، وحران ، وقلعة عقر الحميدية ، وقلاع الهكارية جميعها ، وكان نأبه بتكريت الامير تبر ، فأرسل إليه ليسلمها ، فقال : إن المولى اتابك لا يقيم بتكريت ، ولا بد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي ، فما أمكن محاققته لاجل مجاورة بغداد . وأما شهرزور فكان بها الامير بوزان ، فقال مثله أيضا ، فأقرت بيده ، وكان في طاعة اتابك قطب الدين .

وسبب فراق زين الدين ، أنه أصابه عمى وصمم ، وأقام بإربل

إلى أن توفي بها من سنته وكان قد استولى عليه الهرم ، وضعفت قوته ، وكان خيرا عادلا ، حسن السيرة ، جوادا محافظا على حسن العهد واداء الامانة ، قليل الغدر بل عديمه ، وكان إذا وعد بشيء لا بد له من أن يفعله وإن كان فعله خطيرا ، وكان حاله من أعجب الاحوال ، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته ، حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء . بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بئب فرس ذكر أنه نفق له ، فأمر له بفرس ، فأخذ ذلك الذئب أيضا غيره من الاجناد وأحضره وذكر أنه نفق له دابة ، فأمر له بفرس ، فتداول ذلك الذئب إثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرسا ، فلما أحضره آخرهم ، قال له : أما تستحيون مني كما أستحي منكم ، قد أحضر هذا الذئب عندي إثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل احدكم ، أتظنون أنني لا أعرفه ، بلى والله ، إنما أردت أن يصلاكم عطائي بغير من ولا تكبير ، فلم تتركوني ، وأمر له بفرس آخر ، كما قال بعضهم في شأنه :

ليس الغبي بسيد في قومه

لكن سيد قومه المتغابي

وكان يعطي كثيرا ويخلع عظيما ، وكان له البلاد الكثيرة فلم يخالف شيئا ، بل أنفذ جميعه في العطاء والانعام على الناس ، فكان يلبس الغليظ ، ويشد على وسطه كل ما يحتاج الجندي إليه من سكين ، ودرفش ، ومطرقة ، ومسلة ، وخيوط ، ودسترك ( ١٠١ ) وغير ذلك . وكان من أشجع الناس ، ميمون الذقبة لم تهزم له راية ، وكان يقوم المقام الخطر فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركيا أسمر اللون ، خفيف العارضين ، قصيرا جدا . وبنى مدارس وربطها بالموصل وغيرها ، بلغني أنه مدحه الحيص بيص ، فلما أراد الانشاد قال له : أنا لا أدري ما تقول ، لكنني اعلم أنك تريد شيئا ، وأمر له بخمسائة دينار وأعطاه فرسا وخلصا وثيابا ، يكون مجموع ذلك نحو ألف دينار . ومكارمه كثيرة نقتصر على بعضها .

ولما توفي كان الحاكم باربل خادمه مجاهد الدين قايماز والمتولي لامورها ، وولي بعدد زين الدين ولده الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري مدة ، ثم فارقها ، لخلف كان بينه وبين مجاهد الدين ، وجرت أمور يطول ذكرها .

ولما فارق زين الدين الموصل ، إستتاب أتابك قطب الدين بالقلعة بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح ، فسلك غير طريق زين الدين ، فكرهه الناس وذموه ، فلم تطل أيامه ، وسيجيء ذكر عزله سنة ست وستين وخمسائة إن شاء الله تعالى .

## ملك نور الدين

### قلعة جعبر من صاحبها وكيف

في أول سنة أربع وستين وخمسائة ، ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي ، فكانت بيده ويد أبائه قبله من أيام السلطان ملكشاه ، وقد تقدم ذكر ذلك . وهي من أمتع الحصون وأحسنها ، مطلة على الفرات ، لا يطمع فيها بحصار .

وأما سبب ملكها ، فإن صاحبها نزل منها يتصيد ، فاخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه إلى نور الدين في رجب سنة ثلاث وستين وخمسائة ، فاعتقله بحلب وأحسن إليه ، ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل ، فعدل إلى الشدة والعنف وتهده فلم يفعل أيضا ، فسير إليها نور الدين عسكريا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن أبي علي بن الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفروا منها بشيء ، فامدهم بعسكر جرار ، وجعل على الجميع الامير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية - وهو رضيع نور الدين ، وهو واحد

امرائه - فحصرها ايضا فلم ير له فيها مطمعا ، فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ العوض من نور الدين مدينة سروج وأعمالها والملاحة التي بين حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة ، وهذا إقطاع عظيم جدا لكنه لاحصن فيه ، وتسلم نور الدين القلعة في أول هذه السنة ، ولما اخذها نور الدين سلمها إلى مجد الدين بن الداية . وكان هذا آخر ملك بني مالك ولكل أمر أمد ، ولكل ولاية نهاية ، ( توتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ) ( ١٠٢ ) ( يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ) ( ١٠٣ ) بلغني أنه قيل لشهاب الدين : أيما أحب إليك وأحسن مقاما ، سروج والشام ( أم ) القلعة ؟ فقال : هذه أكثر مالا ، والعز بالقلعة فارقتاه .

### ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر الثالثة وملكها وقتل شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر

في ربيع الاول من سنة أربع وستين أيضا ، سار أسد الدين شيركوه في العساكر الذورية إلى بيار مصر وملكها واستولى عليها . وسبب ذلك ما ذكرناه من استيلاء الفرنج على البلاد بمصر ، وأنهم جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة ، وأبواب البلدين قد سكنها فرسانهم والمفاتيح معهم ، وتحكموا تحكما كثيرا ، وحكموا على المسلمين حكما جائرا ، فنال المسلمين منهم اذا شديدا ، وجورا عظيما ، وقهرا زائدا ، وطمعوا فيهم وأرسلوا حينئذ إلى ملكهم ، وهو « مرى » ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه ليملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبههم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم : الرأي عندي أننا لانقصدها فإنها طعمه لنا ، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فان صاحبها وعساكرها وعامة أهل بلادها

وفلاحيتها لا يسلامونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام فلم يصغوا إلى قوله ، وقالوا : إن مصر لا مانع لها ولا حافظ ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا ، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتنمى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد ، وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد ، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة مدينة حمص ، فلما سمع نور الدين ( بذلك ) كاتب عساكره وأجناده وأمرهم بالقدوم عليه .

وجد الفرنج في السير إلى مصر فقدموها ، ونزلوا مدينة بلبيس وحصروها ، فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا أهلها مستهل صفر ، وكان جماعة من أعيان المصريين منهم ابن الخياط وابن قرجلة قد كاتبوا الفرنج .

وساروا من بلبيس إلى مصر ، فنزلوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر ، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهودهم في حفظه ، فلو أن الفرنج احسنوا السيرة في بلبيس لماكوا مصر والقاهرة ، لكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقتضي أمرا كان مفعولا ، وكان شاور قد أمر باحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفا عليها من الفرنج ، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوما ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب نيار مصر إلى الملك العادل نور الدين يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتدقهن من الفرنج ، فقام نور الدين لذلك وقعد ، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على من فيها ، وشاور هو متولي أمر البلد والعساكر والقتال ، فضاقت به الأمر وضعف عن ردهم ، فأخذ إلى أعمال الحيلة ، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة ، وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاقد ، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه ، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين ، فساغابه إلى الصلح على أخذ ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض ، واستقرت القاعدة على ذلك . ورأى الفرنج أن البلاد قد امتدعت عليهم ، وربما سلمت إلى نور الدين فاجابوا كارهين ، وقالوا : ناخذ المال نتقوى به ، ونستكثر من الرجال ونعود إلى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولاغيره ، ( ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ) ( ١٠٤ ) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريبا .

وعاود العاقد مراسلة نور الدين وإعلامه ما لقي المسلمون من الفرنج ، ويبذل له ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذي لنور الدين .

وكان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاقد ، قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص - وهي إقطاعه - فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها ، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضا وصلته في المعنى ، فسار إلى نور الدين وهو بحلب واجتمع به ساعة وصوله ، فعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره ، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والالات والأسلحة وغير ذلك ، وحكمه في العسكر والخزائن ، فاختر من العسكر ألفي فارس ، وأخذ المال ، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين إلى دمشق ، فوصلها سلخ صفر ، ورحلوا في جميع العساكر إلى رأس الماء ، وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع

أسد الدين عشرين بينارا معونة له على طريقه ، غير محسوبة من القرار الذي له ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء والمماليك ، منهم مملوكه عز الدين جـريدك ، وعز الدين قليج ، وشرف الدين بزغش ، وعين الدولة الياروقي ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه ، ( وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ) ( ١٠٥ ) ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه نهب بيته ، وبكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته ومملكه ، وسيرد ذلك إن شاء الله تعالى عند موت شيركوه .

ثم إن أسد الدين شيركوه سار مجدا من رأس الماء منتصف ربيع الأول ، فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخفي حنين خائبين مما أملاوا ، وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر ، وبلغ خبر عودهم نور الدين فسر ذلك وأظهر الاستبشار ، وأمر بضرب البشائر في سائر بلاده ، وبث رسله إلى الآفاق مبشرا به ، والحق بيده ، فإنه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لسائر بلاد الشام وغيرها .

وأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع ربيع الاخر ودخلها ، واجتمع بالعاقد لدين الله ، فخلع عليه وعاد إلى خيامه ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ورأى هوى العاقد معهم من داخله فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه فكتمه ، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والاقطاع للعساكر ، وإفراد ثلاث البلاد لنور الدين ، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه ، ( وما يعدهم الشيطان إلا غورا ) ( ١٠٦ ) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم ، فنهاه ابنه الكامل ، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الامر لأعرفن أسد الدين ، فقال أبوه : لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعا ، فقال : صدقت ، لئن نقتل ونحن

مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ،  
وليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ،  
وحيثنذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارسا واحدا  
ويملكون البلاد ويظهرون الفساد ، فترك ما كان عزم عليه فلما رأى  
العسكر المطل من شاور ، إتفق صلاح الدين بن أيوب وعز الدين  
جريك وغيرهما على قتل شاور ، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم ،  
فقالوا : إننا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله ، فأذكر  
ذلك ، فاتفق أن بعض الايام سار أسد الدين إلى زيارة قبر الشافعي  
رضي الله عنه ، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به ، فلقيه  
صلاح الدين يوسف ، وعز الدين جريك ومعهما جمع من العساكر ،  
فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة ، فقال : نمضي اليه ،  
فسار وهما معه قليلا ، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه  
فأخذ أسيرا ، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين فسجنوه في خيمة  
وتوكلوا بحفظه ، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعا ولم يمكنه إلا  
إتمام ما عملوه ، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت  
إلى أسد الدين ، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله وتابع الرسل  
بذلك ، فقتل شاور في يومه وهو السابع عشر من ربيع الاخر ، وحمل  
رأسه الى القصر ، وبخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة  
الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد  
أمركم بنهب دار شاور ، فقصدوا الناس ينهبونها ففرقوا عنه ،  
وقصد أسد الدين قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك  
المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة - وهي التي كان فيها  
شاور - فلم ير فيها ما يقعد عليه ، واستقر في الامر وغلب عليه ،  
ولم يبق له منازع ولا مناوىء ، وولى الاعمال من يثق إليه واستبد  
بالولاية ، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه إليها .

## ذكر وفاة أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين يوسف بن أيوب

( حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ) ( ١٠٧ ) لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه ، وخلا وجهه ممن يخافه ، وصفت له نبيه ، وارتفع شأنه ، وخافه القاصي والداني لاسيما الفرنجة ، أتاه أمر الله الذي لامحيد عنه ولا مفر منه ولا يحتمي عليه ملك بكثرة رجال ، ولا يمنع عنه المعامل والمال ، فمرض وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

ولما توفي كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب ابن شاذي ، قد سار معه على كره منه • حكى لي عنه أنه قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجدين ، أحضرتني وأعلمني الحال ، وقال : تمضي إلى عمك أسد الدين بدمص مع رسولي إليه ، تأمره بالحضور وتحته أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير . قال : ففعلت ، فلما فارقتنا حلب على ميل منها لقيناه قادمًا في هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز للسير ، فامتنع خوفا من غدرهم أولا وعدم ما ينفقه في العساكر ثانيا ، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر ، فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره قال : فالتفت إلي عمي أسد الدين ، وقال : تجهز يا يوسف قال : فكانما ضرب قلبي بسكين ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبدا ، فقال عمي لنور الدين : لا بد من مسيره معي فترسم له ، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله ، فانقضى المجلس ، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير ، فقال لي نور الدين : لا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوت

إليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج إليه ، فأعطاني ما تجهزت به فكانما أساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهيبا مخوفا مع لينه ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفي ، أعطاني الله من ملكها مالا كنت أتوقعه . هذا حكى لي عنه .

وأما كيفية ولايته ، فإن جماعة من الامراء الذورية الذين كانوا بمصر ، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهم : الأمير عين الدولة الياروقي ، وقطب الدين خسرو بن تليل - وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل - ومنهم : سيف الدين علي بن أحمد الهكاري - وجده كان صاحب قسلاص الهكارية - ومنهم : شهاب الدين محمود الحارمي - وهو خال صلاح الدين - وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمع ليغالب عليها ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الامر بعد عمه ، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين - وليس له عسكر ولا رجال - كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه ، فاذا صار معه البعض خرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج وذور الدين « اردت عمرا واراد الله خسارجة » ( ١٠٨ ) فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فالزمه به وأخذ كارها ، « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل » ، فلما حضر في القصر خلع عليه خلع الوزارة ، الجبة والعمامة وغيرهما ، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الامر لأنفسهم ولاخدموه ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه ، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل ، فمال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمي ، وقال له : إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك وقد استقام الامر له ، فلا تكن

أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك ، ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلّفه له . ثم عدل إلى قطب الدين ، وقال له إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير الياروقي وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين ان أصله من الأكراد ، فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك ، ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا ، وعدل إلى عين الدولة الياروقي - وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا - فلم تنفعه رقاؤه ولا نفذ فيه سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبدا ، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأذكر عليهم فراقه ، وقد فات الأمر ( ليقتضي الله امرأ كان مفعولا ) ، ( الأذفانل ( ١٤٢ ) ) ، وثبتت قدم صلاح الدين ، ورسخ ملكه ، وهو نائب عن الملك العبدل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره ، وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الأسفهلر ، ويكتب علامته في الكتب تعظما أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرده في كتاب ، بل يكتب الأمير الأسفهلر صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ، واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئا يخرج به فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالباحث عن حتفه بظلاله ، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسير إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر ، فسير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين ، منهم شمس الدولة توران شاه بن أيوب - وهو أكبر من صلاح الدين - فلما أراد أن يسير ، قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم مقامي ، وتخدمه بذفسك كما تخدمني ، فسر إليه وأشدد أزره وساعده على ما هو بصدده . فقال : أفعل معه من

الخدمة والطاعة مايتصل بك ( خبره ) إن شاء الله تعالى . فكان معه كما قال .

## ذكر حصر الافرنج مدينة دمياط في سنة خمس وستين

في سنة خمس وستين وخمسمائة ، في أوائل صفر ، نزل الافرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية ، فكان افرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا الافرنج الذين بالاندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتعدوا للنزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر ، ( ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ) ( ١٠٩ ) .

فلما نازلوها حصرها وضيقوا على من بها ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الافرنج ، وإن سار إليها ، خلفه المصريون في مخلفيه ، ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته ، وساروا من خلفه والافرنج من أمامه ، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضا .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ، فدخل بلاد الافرنج فنهبها وأغار عليها ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع ، فلما رأى الافرنج تتابع العساكر إلى مصر ، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخرابها ، رجعوا خائبين لم يظفروا

بشيء ، وهذا موضع المثل : زهبت النعامه تطلب قرنين فعادت بلا أننين . فوصلوا إلى بلادهم فأوها خاوية على عروشها ، وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما ، أخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى ، حكى لي عنه أنه قال : مارأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف الف دينار مصري ، سوى الثياب وغيرها .

### ذكر حصر نور الدين رحمه الله الكرك

وفي هذه السنة سار نور الدين إلى بلاد الفرنج فحصر حصن الكرك في رجب . وكان سبب حصره ، أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر ، وسير معه نور الدين عسكريا ، واجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أذس ومودة مالا يعد ، فخاف نور الدين عليهم ، فسار إلى الكرك ونزل عليه وحصره ، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه وأن ابن الهذفري ، وفيليب بن الرفيق - وهما فارسا الفرنج في وقتهم - في المقدمة إليه ، فرحل نور الدين نحوهما ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق ، بهما باقي الفرنج ، فكانا في مائتي فارس والفرنجي ومعه من الراجل عالم كثير ، فلما قاربهما رجعا القهقري إلى من وراءهم من الفرنج ، وقصد نور الدين الشام في وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه إلى أن وصل الشام فنزل بعشتر ( ١١٠ ) وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم ، فلم يبرحوا من مكانهم خوفا منه ، وأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة الحادثة بحلب وأعمالها وسائر بلاد الشام فرحل .

## ذكر الزلزلة التي جرت بالشام وما فعله نور الدين

وفي هذه السنة أيضا في ثاني عشر شوال ، كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها عمت أكثر البلاد من الشام ، ومصر ، وبيار الجزيرة ، والمدوصل ، والعراق وغيرها ، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك ، وحمص ، وحماة ، وشييزر ، وبعرين ، وحلب وغيرها من البلاد ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك منهم ما يخرج عن الحد والاحصاء ، فلما أتاه هذا الخبر ، سار الى بعلبك ليعمر ما أنهدم من أسوارها وخلوها من أهلها ، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حمص ثم إلى بارين . وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين ، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء ألبته ، فجعل فيها طائفة صالحه من العسكر مع أمير كبير ، ووكل بالعمارة من يحدث عليها ليلا ونهارا . وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ ، وكانوا لا يقدرّون على أن يأووا إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من الزلزلة ، فانها عاودتهم غير مرة . وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج . فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها ، أقام فيها وياشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها ، فأخرج من المال ما لا يقدر قدره .

وأما بلاد الفرنج فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريبا من هذا ، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم ، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده .

## ذكره غزوة لسرية نورية

كان شهاب الدين محمود بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق صاحب

قلعة البيرة ، وقد سار في عسكره - وهم مائتا فارس - إلى الخدمة الذورية وهو بعشتر ، فلما وصل إلى اللبوة - وهي من أعمال بعلبك - ركب متصيذا ، فصادف ثلاثمائة فارس للفرنج قد ساروا للاغارة على بلاد الاسلام ، وذلك سابع عشر شوال من هذه السنة ، فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا ، واشتد القتال ، وصبر الفريقان لاسيما المسلمون ، فان ألف فارس منهم لاتصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج ، وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر ، فلم يفلت منهم الا من لايعتد به . قال تعالى : ( ولو تواعدتم لاختلقتم في المعياذ ولكن ليقضي الله امرا كان مفعولا ) ( ١١١ ) . ثم إن شهاب الدين سار بالاسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو والعساكر الى لقائه واستعرض الاسرى ورؤوس القتلى ، فرأى فيها رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد ، وكانت الافرنج تعظمه لشجاعته وبينه ، ولانه شجا في حلوق المسلمين ، وكذلك رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج فازداد سروره ، ( وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ( ١١٢ ) )

في ذكر وفاة أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد  
زنكي بن آقسنقر رضي الله عنه وملاك ابنه سيف  
الدين

في شوال من سنة خمس وستين وخمسمائة ، توفي أتابك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكي بن آق سنقر رضي الله عنه بالموصل ، وكان مرضه حمى حادة . ولما اشتد مرضه أوصى بملاك بعده لولده عماد الدين زنكي - وهو أكبر أولاده وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لانه كان قد أكثر المقام عن عمه الملك العادل نور الدين وخدمه وتزوج ابنته وكان نور الدين يبغض فخر الدين لظلم

كان فيه ويذمه ، ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الامور ، فخاف فخر الدين أن يتصرف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش - زوجة قطب الدين - فردوه عن هذا الرأي ، فلما كان الغد أحضر الامراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي وتوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة . وكان تام القامة ، كبير الوجه ، أسمر اللون واسع الجبهة ، جهوري الصوت ، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا .

ولما توفي استقر سيف الدين في الملك ، ورحل عماد الدين الى عمه نور الدين شاكيا مستنصرا ، وكان فخر الدين هو الذي يدبر أمور سيف الدين ويحكم في مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ، فانه كان في عذفوان شبابه وغرة حداثة .

## حادثة تحث على العدل

من جملة أعمال جزيرة ابن عمر ، قرية تسمى العقيمة تقابل الجزيرة ، يفصل بينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، وبعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الارض التي قد زرعت شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه ، وبعضها مطلق منهما ، فالتمسوح منها لا يحصل لأصحابه إلا القدر القريب ، وكان لنا بها عدة بساتين .

فحكى لي والدي قال : جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة - وأنا أتولى حينئذ ديوانها والحكم إلي فيه على ما شوهد - يأمر بأن يجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة ، قال : فشق ذلك علي لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس ، وهم فقراء . قال : فراجعتهم ، وقلت له : لاتظن أنني أقول هذا لأجل ملكي ، لا والله ، إنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء

للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه . قال : فأعاد الجواب يأمر بالمساحة ، ويقول : تمسح أولا ملكك ليقتدي بك غيرك ، ونحن نطلق لك ما يكون عليه ، قال : فأظهرنا الأمر ، وشرع النواب يمسحون ، وكان بالعقيمة رجلان صالحان وبينني وبينهما مودة ، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة ، قال : فحضرا عندي وتضررا من هذه الحال ، وسألاني المكاتبة في المعنى ، فأظهرت لهما كتاب فخر الدين جوابا عن كتابي ، فشكراني ثم قال : وأيضا تعود تراجع . فعادت القول ، فأصر على المساحة فعرفتتهما الحال . قال : فلما مضى عدة أيام ، عدت يوما إلى داري راكبا ، وإذا هما قد صادفاني على الباب ، فقلت في نفسي : عجا لهنين الشيخين ، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني مالا أقدر عليه . قال : فسألت عليهما وسألما علي ، وقلت لهما : والله إنني أستحي منكما كما جئتما في هذا الأمر ، وقد رأيتما الحال كيف هو . فقالا : صدقت ، ولم نحضر إلا لنعرفك أن حاجتنا قضيت . قال : فظننت أنهما قد أرسلتا إلى الموصل من يشفع لهما ، فدخلت داري وأدخلتهما معي ، وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذي سعى لهما ، فقالا : إن رجلا من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالنا فقال : قد قضيت حاجة أهل العقيمة جميعهم . قال : فوقع عندي من هذا فكر ، تارة أصدقهما لما أعلم من صلاحهما ، وتارة أعجب من سلامة صدريهما ، كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعا لا شك فيه . قال : فلما كان بعد أيام وإذا قد وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة ، وإطلاق كل مسجون وبالصدقة . فسألنا القاصد عن السبب ، فقال : إن أتابك شديد المرض . قال : فأفكرت في قولهما وتعجبت منه ، ثم توفي بعد يومين من هذا ، ورأيت والذي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه ويحترمه ويقضي أشغاله ، واتخذهما أصدقاء .

## فصل في ذكر بعض سيرة أتابك قطب الدين رضي الله عنه

كان رحمه الله ورضي عنه من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال رعيته ، محسنا إليهم كثير الانعام عليهم ، محبوبا إلى صغيرهم وكبيرهم ، عطوفا على مأمورهم وأميرهم ، حلما عن المذنبين منهم ، قليل المؤاخظة لهم على زللهم ، كريم الاخلاق حسن الصحبة لهم ، فكأن القائل أراد به بقوله إذ يقول :

خالق كماء المزن طيب مذاقه  
والروضة الغناء طيب نسيم  
كالسيف لكن فيه حلم واسع  
عمن جنى والسيف غير حلیم  
كالغيث إلا أن وابل جوده  
أبدا وجود الغيث غير مقيم  
كالدهر إلا أنه ذو رحمة  
والدهر قاسي القلب غير رحيم

وكان رضي الله عنه سريع الانفعال للخير ، بسطيئا عن الشر . حدثني والدي قال : إستدعاني يوما وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها له ، فلما حضرت عنده قال لي : بلغني أنك تهمل هذه الجنايات(١١٣) ولا تحفظها ، فقلت له : إنني أعجز عن حفظها لأنني أكون في بيتي والذدار يفعل في القلعة ما يريد ، ثم التفت لي ليس بعظيم وأخاف من الاستقصاء فيها ، لو دعي على بعض هؤلاء الملوك - وأومات إلى أولاده - لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها ، ولنا مواضع تحتمل العمارة لو عمرت يتحصل منها أضعاف هذا . فقال لي : جزاك الله خيرا ، فلقد نصحت وأبیت الامانة ، وشرع في عمارة هذه الأماكن التي تحتمل العمارة . قال : ففعلت وكبرت منزلتي عنده ، ولم يزل يثني علي .

قال : وكان السلطان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه ، لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه .

وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والانجاد بنفسه وعسكره وأمواله ، حضر معه المصافح بحارم وفتحها ، وفتح بانياس ، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف .

وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض . حكى لي والدي قال : دخلت إليه مرة ، فسألني عن ما أتولاه من الأعمال وأحوال الرعية فيها وأنا أخبره . ثم سألني عن القرايا التي خاصة ومن يتولى قسمتها واستخلاص أموالها ، فقلت له : أنا أفعل ذلك بنفسي ، فقال : وما الذي قرر لك عليها في مقابل تعبك ؟ فقلت : لي من إنعام مولانا ما لا حاجة لي إلى تقرير شيء آخر ، ثم المقرر لي من الجامكية والرسوم إنما هو على أعمال من جملتها هذه القرايا ، فقال : لا يجوز تتعب بدون فائدة . ثم أمر لي بعمالة الخاص جميعها في بلد الجزيرة ، فدعوت له . ولما خرجت رأيتها كثيرة يحصل منها ما يزيد على سبعمائة دينار أميرى ، وليس لي بها من العمل كثير أمر . فقلت في نفسي : ربما لا يعلم مقدارها ، فإذا علمه يظن أنني اغتذمت غرته ، فأرسلت إليه مع حاجبه أقول له : إن هذه العمالة يتحصل منها في هذا الرخص كذا وكذا دينار ، وأنا أقنع ببعض ذلك ، قال : فلما سمع قولي ضحك ، وقال : هذا كلام رجل عاقل والجميع له . قال : وكان يدخل إلى الخزانة بعض الاوقات ونحن فيها - إذ كنت أتولاهها - فلا يخرج منها إلا وقد وهب كلا من الحاضرين منها شيئاً صالحاً ، وربما أرسل إلى من غاب ، سهمه .

قال : وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله من أصحابه ، فمن ذلك أن نائبين كانا له بالجزيرة اختصما وترافعا

إليه ، فذكر أحدهما عن الآخر أنه قد كان خان السلطان في مساله ، وأخذ من أموال الرعية أيضا رشا على مالا يجوز له فعله ، قال : فاحضرهما بالموصل وأرسل إليه . وهما في ديوانه يقول : قد قلت عن فلان كذا وكذا ، فإن صح عليه أنه أخذ من أموال رعيتي بينارا واحدا صلته ، فإنني قد وسعت عليه وكثرت إقطاعه لئلا يمد عينه إليهم ، وإن لم يصح عليه شيء عاقبتك على كذبك ، فلم يصح عليه قول شيء فأعاده إلى شغله ، وقال الآخر : لولا أن لك علي حق خدمة لكنت عاقبتك على كذبك ، فعزله .

وكان رضي الله عنه واسع الكرم ، كثير البذل للمال ، يكثر تعهد أصحابه ونوابه ، بالصلوات السنوية والعطايا الجزيلة ، ففرق أموالا لاتحصى ولاتحد ، فمنها : ما كان جمع في الأيام الشسهيبية • والايام السيفية ، وما كان قد ادخره نصير الدين جقر ، وما تحصل له هو من البلاد في أيامه .

أعطى فأكثر واستقل هباته

فاستحيت الانواء وهي هوامل

فاسم الغمام لديه وهو كنهور

أل(١١٤) وأسماء البحار جداول

لم تذل أرض من نداه ولا خلا

من شكر ما يولي لسان قائل

وكان رضي الله عنه يقول لمن ينهاه عن كثرة الانفاق وإخراج الاموال : متى سمعتم أن ملكا حبسه القاضي ، وإذا لم يظهر إحساني على من يخدمني فمن الذي يحسن إليهم ؟ وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد الشهيد عماد الدين زنكي : سيف الدين ، وذور الدين ، وقطب الدين ، وما جمع الله سبحانه فيهم من مكارم الاخلاق ، ومحاسن الافعال ، وحسن السيرة ، وعمارة البلاد ، والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الاسباب التي يحتاج الملك إليها ، أظن أن القائل أرادهم بقوله : شعر

- ٦٥٣٩ -

هيذون ليزون أيسار بذو يسر  
سواس مكرمة أبناء أيسار  
لاينطقون على العوراء إن نطقوا  
ولا يمارون إن ماروا ياكبار  
من يلق منهم يقل لا قيت سيدهم  
مثل النجوم التي يسري بها السار

وانذكر قول بعضهم - وقد سئل عن أولاد المهلب بن أبي  
صدرة - أيهم أفضل ، فقال : هم كالحلقة المفرغة . وقول فاطمة  
ابنة الحريث - وقد سئلت عن اولادها الكملة أيهم خير - فقالت :  
فلان ، بل فلان ، ثم قالت : نكلتهم إن كنت أعلم أيهم خير . وهكذا  
كانوا رضي الله عنهم .

ذكر وفاة المستنجد بالله أمير المؤمنين وخلافة  
ولده المستضيء بأمر الله . رضي الله عنهم

توفي الامام المستنجد بالله أمير المؤمنين في تاسع شهر ربيع  
الأخر من سنة ست وستين وخمسمائة . واسمه يوسف بن المقتفي  
لأمر الله . وتمام نسبه عند وفاة المستنجد بالله رضي الله عنه .

وامه ام ولد اسمها طاووس رومية . ومولده مستهل ربيع الاخر  
سنة عشر وخمسمائة ، وكانت خلافته احدى عشرة سنة وستة أيام .  
وكان أسمر ، تام القامة ، طويل الحية .

وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خافه استاذ  
الدار عضد الدين ابو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين  
قايمان - وهو من مماليك المقتفي لأمر الله - وهو حينئذ أكبر أمير  
ببغداد ، وله من الاتباع مثل علاء الدين تتامش ويزن وغيرهما ،  
وكان محسنا الى الاجناد ، فلما اشتد مرض المستنجد بالله اتفقا

ووضعا الطبيب على ان يصف له ما يؤنّيه ، فوصف له دخـول الحمام ، فامتنع المستنجد بالله لضعفه ، ثم ادخله واغلق عليه الباب الى أن مات . هكذا سمعته من غير واحد ممن يعلم الحال .

وكان وزيره حينئذ شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي - وهو الحاكم في الدولة - وبينه وبين أستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوة مستحكمة ، لان المستنجد بالله كان يأمره فيما يتعلق بهما بأشياء فيفعلها ، فكانا يظنان أنه هو الذي يسعى بهما ، فلما مرض المستنجد بالله وأرجف بموته ، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعدة الكاملة فلم يتحقق عنده خبر موته ، وأرسل إليه أستاذ الدار يقول : إن أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض واقبلت ( عليه ) العافية . فخاف الوزير أن يدخل إلى دار الخلافة بالجند فربما جرى عليه عتب وانكار ، فعاد إلى داره وتفرق الناس عنه . وكان أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير ( خوفا منه ) إن دخل الدار ( ان ياخذهما ( ١١٥ ) ، فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبوابها وأظهر وفاة المستنجد ، واحضر هو وقطب الدين ابنه ، أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضيء بأمر الله ، وشرطا عليه شروطا ، منها : أن يجعل عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذ الدار ، ويجعل قطب الدين أمير العسكر ، فأجابهم إلى ذلك . وعلم شرف الدين بن البلدي الحال ، فصفق يدا على يد ، وقرع سنه ندما على ما فرط في عوده الى داره ، حيث لا يذفعه الندم ، وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء ، فمضى الى دار الخلافة ومعه زعيم الدين ابن جعفر ، وهو صاحب المخزن ، فلما دخلها صرف الى موضع من الدار وقتل وقطع قطعاً والقي في دجلة ، رحمه الله تعالى . وأرسل عضد الدين وقطب الدين الى داره فحمل جميع ماله فيها من مال وغيره ، فرأيا في ذلك خطوط المستنجد بالله اليه يأمره فيها بالقبض عليهما ، وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه ، فلما وقفا عليه ، علما براءته مما كانا يظنان فيه ، فندما حيث لم يذفعهما

ندمهما . واما زعيم الدين جعفر ، فان عماد الدين بن الوزير عضد الدين شفع فيه ، وهذا عماد الدين كان قد تصوف وترك الاعمال .

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية ، عادلا فيهم ، كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيرا ولم يترك بالعراق مكسا . وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس . بلغني أنه قبض على انسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعيات فأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة الاف دينار ، فقال : أنا أعطيك عشرة الاف دينار وتحضر لي انسانا آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس ولم يطلقه .

## فصل في ذكر ملك نور الدين الموصل

وغيرها من البلاد الجزرية وتقرير الموصل على سيف الدين غازي

لما بلغ نور الدين وفاه أخيه قطب الدين رضي الله عنهما ، وملك ولده سيف الدين بعده . واستيلاء فخر الدين عبد المسيح واستبداده بالامور وحكمه على سيف الدين غازي ، انذف لذلك وكبر لديه وشق عليه ، وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة ، وكان رحمه الله لنا رفيقا عادلا ، فقال: أنا أولى بتدبير بني اخي وملكهم ، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر مستهل محرم سنة ست وستين وقصد الرقة ، فامتنع النائب بها شيئا من الامتناع ، ثم سلمها على شيء اقتصرحه ، فاستولى نور الدين عليها وقرر امورها . وسار الى الخابور فملكه جميعه .

ثم ملك نصيبين واقام بها يجمع العسكر ، فإنه كان قد سار جريدة ، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن

وديار بكر ، واجتمعت عليه العساكر فكان قد ترك اكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره واطرافه من الفرنج وغيرهم فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق ، وكان بها عسكر كثير من الموصل ، فكتبه عامة الامراء الذين بالموصل يحدثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن اخيه قطب الدين . ثم سار إلى الموصل فاتى مدينة بلد ، وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي ، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نيزوى ، ودجلة بينه وبين الموصل . ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة . وكان فخر الدين قد سير المولى عز الدين مسعود بن أتابك قطب الدين رضي الله عنهما إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل ، وأذربيجان ، وأران وغيرها يستنجده ، فأرسل إيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ، ويقول : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها ، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته - وكان بسنجار - فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : قل لصاحبك ، أنا أرفق ببني اخي منك فلم تدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم ، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وإزالة الظلم عن المسلمين ، فعاد الرسول بهذا الجواب .

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال ، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله ، وكتبه الامراء يعلمونه أنهم على الوثوب بفخر الدين وتسليم البلد إليه ، فلما علم فخر الدين ذلك ، راسله في الصلح والدخول في طاعته ، وإبقاء الموصل على سيف الدين ، ويطلب لنفسه الامان وإقطاعا يكون له ، فأجابه إلى ذلك ، وقال : لا سبيل إلى مقامك في الموصل بل

تكون عندي بالشام ، فإني لم آت لأخذ البلاد من أولادي ، إنما جئت لأخلص الناس منك ، وأتولى أنا تربية أولادي ، فاستقرت القاعدة على ذلك ، وسلمت الموصل إليه ، فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى من سنة ست وستين وخمسمائة ، وسكن القلعة . وأقر سيف الدين غازي على الموصل ، وولى بقلعتها خادما له يقال له سعد الدين كمشتكين وجعله دزدارا فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه أتاك قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة الامام المستضى بأمر الله فلبسها ، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين .

وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد ، وأمر ببناء الجامع النوري فبنى ، وأقيمت الصلاة فيه سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وأقام بالموصل نحو عشرين يوما وسار إلى الشام ، فقبل له : إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود . فقال : قد تغير قلبي فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعني أيضا أنني ( ههنا ) ( ١١٦ ) لأكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد .

ثم أقطع نصيبين والخابور للعساكر ، وأقطع جزيرة ابن عمر لسيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل ، وعاد إلى الشام ومعه فخر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعا كثيرا .

## ذكر غزوة إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام

في سنة سبع وستين وخمسمائة ، خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الفرنج الذين في لاذقية مركبين منها مملوعين من الامتعة والتجار وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم

فذكثوا ، فلما سمع نور الدين الخبر إستعظمه ، وراسل الفرنج في اعادة ما أخذوه فغالطوه ، واحتجوا بأمر منها : أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ، وكانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم . وكان رضي الله عنه لايهمل أمرا من أمور رعيته فلم يردوا شيئا ، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم ، بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس ، وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العساكر إلى حصني صافيتا وعريمة فأخذهما عذوة وكذلك غيرهما ، ونهب وخرب ، وغزم المسلمون الكثير وعادوا اليه وهو بعرقه ، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب .

وأما النين ساروا إلى أنطاكية ، فانهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ما أخذوه من المركبين ، وتجدد معهم الهدنة فأجابهم إلى ذلك فكانوا في ذلك كما يقال ، اليهودي لا يعطي الجزية حتى يطم ، وكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالسليبي أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها .

### نادرة غريبة في زماننا هذا

قد علم الناس قلة الأمانة . والأداء ربل عدما ، فلما أخذ الفرنج هذين المركبين ، كان لوالدي فيهما تجارة مع شخصين فلما أعادوا إلى الناس أمم والهم لم يصل إلى كل انسســــــــــــــــان الا اليسير ، وكان يحمل المتاع إلى نور الدين ويحضر التجار ، فكل من اسمه على ثوب أخذه ، وكان في الناس من يأخذ مالميس له ، فكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة - وكان نصرانيا - فلم يأخذ الا ما عليه اسمه وعلامته ، فذهب من ماله ومالنا كثير بهذا السبب ، وكان الذي حصل له من مالنا أكثر من الذي له ، فلما عاد

إلينا سلم الذي له إلى والدي ، فامتنع من أخذه وقال خذ أنت الجميع فإنك أحوج اليه ، وأنا في غنى عنه ، فلم يفعل ، فلما كان بعض الأيام ، وإذا قد جاء ذلك الغلام ومعه عدة من الأثواب السوسي وغيرها ، وقال : هذا من قماشنا قد حضر اليوم ، وسبب حضوره أن انسانا فقاعيا ( ١١٧ ) من أهل تبريز كان معنا في المركب ، وقد أعادوا عليه ماله ، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها ، فلم يسهل عليه مردها ، وسأل عني وقصدني وهي معه ، وحضر عندي الساعة وسلمها الي ، وقال : قد تركت طريقي لتبرأ نمتي ، وأخذنا نحن ماعليه اسمنا بعد الجهد ، وطلب والدي الرجل ، وسأله ان يقيم عندنا ليسلم اليه مالا يتجر فيه فلم يفعل ، وعاد الى بلده وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان .

## ذكر انقراض الدولة العلوية بمصر واقامة الخطبة العباسية بها

في المحرم من سنة سبع وستين وخمسائة ، قطعت خطبة العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر ، وخطب فيها للامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين .

وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، لما ثبت قدمه في مصر ، وزال المخالفون له ، وضعف أمر الخليفة بها ، العاضد ، ولم يبق من العساكر المصرية أحد ، كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود ، يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، واقامة الخطبة العباسية ، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب اهل مصر ، وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين ، فلم يصغ نور الدين الى قوله ، وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاما لافسحة له فيه ، واتفق ان العاضد مرض - وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له - فاستشار امراءه كيف الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك ، الا أنه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين ، وكان قد دخل الى مصر انسان عجمي يعرف بالأمير العالم - وقد رأيناه بالموصل كثيرا - فلما رأى ما هم فيه من الاحجام ، قال : أنا أبتدىء بها ، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله فلم يذكر أحد فلما كان الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه

بذلك ، وقالوا : ان سلم فهو يعلم ، وان توفي فلا ينبغي ان ننغص عليه هذه الايام التي بقيت من أجله ، فتوفي يوم عاشوراء ، ولم يعلم .

ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه ، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد ، بهاء الدين قبرا قوش - وهو وخصي - لحفظه وجعله كأستادار للعاضد ، فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ، ونقل اهل العاضد الى مكان منفرد ووكل بحفظهم وجعل اولاده وعمومته وأبناءهم في ايوان في القصر وجعل من يحفظهم ، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والاماء ، فأعتق البعض وهب البعض وباع البعض ، وأخلى القصر من أهله وسكانه ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الايام وتعاقب الدهور .

ولما اشتد مرض العاضد ارسل يستدعي صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة فلم يمش اليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه .

وكان ابتداء الدولة العلوية بافريقية والمغرب في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين ، وأول من ظهر منهم ، المهدي ابو

محمد عبد الله وهو ( الذي ) بنى المهديية وملك إفريقية جميعها ، وقام بالأمر بها بعده ، ابنه القائم بأمر الله ابو القاسم محمد ، ثم ابنه المنصور بالله أبو الطاهر اسماعيل بن محمد ، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد - وهو الذي سير العساكر الى مصر مع مولاة جوهر ، ففتحها وملكها في شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبنى القاهرة - وخرج المعز من إفريقية ، فأقام بمصر وأولاده بعده الى أن انقضت دولتهم الآن ، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستين سنة ، وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثمان سنين ، وملك منهم أربعة عشر خليفة ، وهم : المهدي ،

والقائم بأمر الله ، والمنصور بالله ، والمعز لدين الله ثم ابنه العزيز بالله ، ثم الحاكم بأمر الله ، ثم الظاهر لا عزاز بين الله ، ثم المستنصر بالله ، ثم المستعلي بالله ، ثم الأمر بأحكام الله ، ثم الحافظ لدين الله ، ثم الظافر بالله ، ثم الفائز بنصر الله ، ثم العاضد لدين الله ، وهو آخرهم ، ولقد اتينا على ذكر ما أجملناه في المستقصى في التاريخ ، وانما نذكر ههنا ما تدعو الحاجة اليه .

ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله ونخائره ، اختار منه ما أراد ووهب أهله وأمرائه وباع منه كثيرا وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طول السنين وممر الدهور ، فمنه : القضيبي الزمرد طوله نحو قبضة ونصف ، والجبل الياقوت وغيرهما ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر ، ارسل نور الدين اليه يعرفه ذلك ، فحل عنده أعظم محل ، وسير اليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي اكراما له ، لأن عماد الدين كان كبيرا في المحل في الدولة العباسية ثبتها الله تعالى ، وكذلك ايضا خلعا لصلاح الدين ، الا أنها أقل من خلع نور الدين ، وسيرت الاعلام السود لتنصب على المنابر ، وكانت هذه أول هبة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العلويين عليها .

## ذكر الوحشة بين نور الدين

### وصلاح الدين باطنا

وفي سنة سبع وستين أيضا ، جرى ما أوجب ذفرة نور الدين من صلاح الدين وكان الحادث أن نور الدين ارسل الى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى بلد الفرنج ، والنزول على الكرك ومحاصرتة ، ليجمع هو أيضا عساكره ويسير اليه ، ويجتمعها هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم ، وكتب الى نور الدين يعرفه ان رحيله لا يتأخر ، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك ، رحل عن دمشق عازما على قصد الكرك فوصل اليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين اليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول اليه باختلال البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد اليها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر الى صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم ما يبلغه من عزم نور الدين قصده وأخذ مصر منه ، فاستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء ، فقام تقي الدين عمر - ابن أخي صلاح الدين - وقال : اذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ، ووافقته غيره من أهله فشتمهم نجسهم الدين أيوب وأذكر ذلك واستعظمه - وكان ذا رأي ومكر وعقل - وقال لتقي الدين : اقعد وسبه ، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين

خالك ، أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ فقال : لا ، فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا الا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فاذا كنا نحن هكذا ، كيف يكون غيرنا ، فكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه الا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها ، وان أراد عزلك فأني حاجة له الى المجيء ، يأمر بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد .

وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد ، فتفرقوا على هذا ، وكتب اكثرهم الى نور الدين بالخبر ، ولما خلا ايوب بابنه صلاح الدين ، قال له : أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا المجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ، فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم الأمور اليه وأولها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وكانوا اسلموك اليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون اليه ويعرفونه قولي ، وتكتب أنت اليه وترسل في المعنى وتقول : اي حاجة الي قصدي ، يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي ، فهو اذا سمع هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج والله كل وقت في شأن ، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا ، عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ، وتوفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

## في ذكر اتخاذ نور الدين حمام الهوادي

وفي سنة سبع وستين ، أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام

الهوادي ، وهي المناسبة التي تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها ، واتخذت في سائر بلاده .

وكان سبب ذلك انه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد الذوبة الى باب همذان ، لايتخللها سوى بلاد الفرنج وكان الفرنج لعنهم الله ربما نزلوا بعض الثغور ، فالى ان يصل الخبر ويسير اليهم يكونوا قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به الى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولربيبها ، فوجد بها راحة كثيرة ، كانت الأخبار تأتيه لوقتها ، فإنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم ، فاذا رأوا أو سمعوا أمرا ، كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصل الى المدينة التي هو منها في ساعته ، فتندقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين ، وهكذا الى أن تصل الأخبار اليه ، فاندفعت الثغور بذلك حتى ان طائفة من الافرنج نزلوا ثغرا له ، فأتاه الخبر ليومه ، فكتب الى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا والفرنج آمنون ، لبعد نور الدين عنهم ، فرحمه الله ورضي عنه ، ماكان أحسن نظره للرعايا والبلاد .

## ذكر قصد نور الدين الشهيد بلاد قلع أرسلان

في سنة ثمان وستين وخمسمائة ، سار نور الدين نحو ولاية المالك عز الدين قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان بن سليمان السلجوقي ، وهي ملطية وسيواس وقونية ، وأقصر ، عازما على حربه وأخذ بلاده منه .

وكان سبب ذلك ، أن ذا الذون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من البلاد ، قصده قلع أرسلان وأخذ بلاده

وأخرجه عنها طريدا ، فسار الى نور الدين مستجيرا به وملتجئا الى ظله ، فأكرم نزله وأحسن اليه ، وحمل له مايليق أن يحمل إلى الملوك ، ووعد النصرة والسعي في رد ملكه إليه ، وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين الا ضرورة ، إما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرها ، فلما قصد ذو النون ، راسل قلعج ارسلان وشفع اليه في اعادة ماغلب عليه من بلاده فلم يجبه الى ذلك ، فسار نور الدين نحوه ، فابتدأ بحصني بهسنا ، ومرعش فملكهما ومايينهما من الحصون ، وسير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قلعج ارسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده ، قد سار من أطرافها التي تلي الشام الى وسطها ، خوفا وفرقا ، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأتاه عن الافرنج ما أزعجه فأجابته الى الصلح وكان في جملة رسالة نور الدين اليه : انني اريد منك أمورا وقواعد ، ومهما تركت منها فلا اترك ثلاثة اشياء : أحدهما أنك تجدد اسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام ، فانني لأعتقدك مؤمنا - وكان قلعج ارسلان يتهم باعتقاد مذهب الفلاسفة - والثاني ، اذ طلبت عسكرا الى الغزاة تسييره ، فانك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهانتهم .

فاما أن تنجيني بعسكر لأقاتل بهم الافرنج وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم والثالث ان تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي ، وذكر أمورا غيرها ، فلما سمع قلعج ارسلان الرسالة قال : ما قصد نور الدين الا الشناعة علي بالزندقة ، وقد اجبته الى ما طلب أنا أجدد اسلامي على يد رسوله ، واستقر ذي النون ، فبقي العسكر بها الى أن مات نور الدين ، فرحل العسكر عنها وعاد قلعج ارسلان وملكها .

## ذكر وفاة الملك العادل نور الدين بن عماد الدين

### زنكي

توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن أقسـذقر بدمشق ، يوم الأربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسائة ، بعلة الخوانيق ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل عنها الى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين .

وكان قد شرع يتجهز للمسير الى مصر لأخذها من صلاح الدين ، فانه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته ، فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر لتركها في الشام تمنعه من الفرنج ، ليسير هو بعساكره الى مصر وكان المانع لصلاح الدين من الغزو خوف نور الدين ، فانه كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج من طريقه أخذ البلاد منه ، فكان يحتمي : بهم عليه ولايؤثر استئصالهم ، وكان نور الدين لايرى إلا الجد في غزوهم بجهد وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه ، تجهز للمسير اليه ، فأتاه أمر الله الذي لايرد .

حكى لي طبيب دمشقي يعرف بالرحبي - وهو من حناق الأطباء - قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء ، فدخلنا عليه - وهو في بيت صغير بقلعة دمشق - وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته ، فكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه ، فلما دخلنا اليه ورأينا مابه ، قلت له : كان ينبغي أن تنتقل عن هذا الموضع الى مكان فسيح فله اثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه فلم ينجح فيه الدواء وعظم الداء ، ومات عن قريب رضي الله عنه .

وكان أسمر ، طويل القامة ، ليس له لحية الا في حنكه ، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة حلو العينين .

ولما توفي كان قد اتسع ملكه جدا ، فملك الموصل ، ونيار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب نيار بكر ، وملك الشام ، والنيار المصرية ، وأمر بمسير جند من مصر الى اليمن فساروا - ومقدمهم شمس الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين - فملكها ، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة ، وكان مولده تاسع عشر شوال من سنة احدى عشرة وخمس مائة ، وطبق ذكره الأرض لحسن سيرته وعدله ، وأنا أذكر من حاله ما تعلم أن الله تعالى كمله ، وأنه لم يكن مثله الا الشاذ النادر .

### في ذكر ولاية ابنه الصالح اسماعيل رضي الله عنه

لما توفي نور الدين ، جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك ولم يبلغ الحلم ، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها ، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وصلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضرب السكة باسمه فيها ، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم .

وحكى لي البقرة قتلى الكمالي ، قال : لما توفي نور الدين قال صاحبي كمال الدين ( محمد الشهرزوري ) للأمراء ومنهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي وغيرهما من أكابر الأمراء : قد علمتم ان صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه ، والمصلحة نشاوره فيما نفعه ، ولانخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر ، وربما أخرجنا وتولى هو - وخدمة الملك الصالح ، فلم يوافق اغراضهم هذا القول ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجون ، قال : فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يهنئه بالملك ويعزيه بأبيه ، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ، ويعرفه ان الخطبة له والطاعة كما كانت لوالده ، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين

وملك الديار الجزرية ، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء الى صلاح الدين ولأعلموه الحال ، كتب الى الملك الصالح يعقبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويكفه ، وكتب الى كمال الدين والى الأمراء يقول : ان الملك العادل ، لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق اليه مثل ثقته بي ، لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواي ، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي دوني ، وسوف أصل الى خدمته ، وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه وأهمال أمر الملك الصالح ومصالحه حتى أخذت بلاده ، فقال لهم كمال الدين : هذا الذي كنت حذرتكم ، فأقام الملك بدمشق ومعه جماعة من الأمراء ولم يمكثوه من المسير الى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية ، فانه كان أكبر الأمراء الذورية ، وانما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه ، وكان هو وأخوته بحلب ، وأمرها اليهم ، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة ، أرسل إلى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه ، وأرسل الى كمال الدين والأمراء يقول لهم : إن سيف الدين قد ملك الى الفرات ، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح الى حلب ، حتى يستجمع العساكر ويسترد ماأخذه منه ، والا عبر سيف الدين إلى حلب ، ولانقوى على منعه ، فلم يرسلوه ولامكنوه من قصد حلب ، فكان من سيف الدين في ملك البلاد الجزرية ماذكره ان شاء الله تعالى .

## في ذكره بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود رضي الله عنه

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا

أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحرياً للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل يشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، وقد تقدم من أحواله في مملكته ما يستدل به على ما ذكرنا ونحسن نذكر ههنا ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان في أمة لا فتخرت به ، فكيف في بيت واحد .

فأما زهده وعبادته فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه ، الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمه ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعدده الى غيره ألبته ، ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ، ومن ادخالها الى بلدها ، وكان يحد شاربهها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواء .

حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر زوجة نور الدين ووزيرها ، قال : كان نور الدين اذا جاء اليها يجلس في المكان المختص به ، وتقوم في خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن لها في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه الى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو تارة بطالع رقاع اصحاب الأشغال ، أو مطالعة كتاب أتاه ويجيب عنه وكان يصلي فيطيل الصلاة ، وله أو راد في النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم الى الوضوء والصلاة والدعاء الى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويستغل بمهام الدولة قال : وانها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قد قرره لها فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها فلما قلت له تذكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفيها مالها؟! والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، ان كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعبدة لفتق ان كان ممن عدو

الاسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها إياها فلتأخذها، قال: وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان رحمه الله لا يفعل فعلا الا بنية حسنة ، كان رجل بالجزيرة من الصالحين كثير العبادة والورع ، شديد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاثبه ويرجع الى قوله ويعتقد فيه حسنا ، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، فكتب اليه يقول له : ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب وتغذب الخيل لغير فائدة بينية ، فكتب اليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ما حملني على اللعب بالكرة ، اللهو والبطر ، وإنما نحن في ثغر والعدو قريب منا ، وبيننا نحن جلوس اذ يقع الصوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا ، شتاء وصيفا ، اذ لا بد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على ادمان السير في الطلب ، ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

فانظر الى هذا الملك المعدوم النظر ، الذي يقل في اصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله ، فإن من يجيء إلى اللعب ويفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات ، يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئا الا بنية صالحة ، وهي افعال العلماء الصالحين العاملين .

وحكي لي عنه ، أنه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده ، فوصفت له فلم يلتفت اليها ، وبينما هم معه في حديثها ، واذا قد جاءه رجل صوفي فأمر بها له ، فقيل : انها لاتصلح لهذا الرجل ، ولو أعطيتي غيرها لكان انفسع

له ، فقال : اعطوها له ، فاني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة ، فسلمت اليه ، فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار اميري أو سبعمائة دينار ، أنا أشك أنها كانت تساوي اكثر .

وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكركري رحمه الله تعالى - وكان خصيصا لخدمته قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط - قال : كنت معه يوما في الميدان بالرها نسير والشمس في ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ، فقال لي : اتدري لأي شيء أجرى فرسي وألتفت ورأني ؟ قلت : لا ، قال : قد شبهت مانحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها ، وكان رحمه الله يصلي كثيرا من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولا يزال كذلك الى أن يركب .

### جمع الشجاعة والخشوع لربه مأحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الإمام ابي حنيفة ، وليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته في كل شيء ، وسمع الحديث وأسمعه طالبا للأجر ، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل ، والانصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فانهم كانوا قبله كالجاهلية ، هممة أحدهم بسطنه وفرجه ، لا يعرف معروف ولا ينكر منكرا . حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك اتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه ، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فإن قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجيب إليه الأموال الكثيرة ؟ فليذكرني الله سليمان بن داود عليه السلام مع ملكه ، وهو سيد الزاهدين في زمانه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد حكم على حزموت ، واليمن

والحجاز وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام الى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين ، وانما الزهد خلوا القلب من محبة الدنيا لاخلوا اليد عنها .

## وأما عدله

فانه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعد لهم حكما ، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة لامكسا ولا عشرا ، بل اطلقها جميعها في بلاد الشام ، والجزيرة جميعا والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه ، وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا ، فأطلقها ، وهذا لم تتسع له نفس غيره ، وكان يجري العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولى كشف حاله بذقسه ، ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها .

## ومن عدله

أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ، ويقول : نحن شحن لها نمضي أوامرنا فمن اتباعه أحكامها أنه كان يوما يلعب بالكورة بدمشق ، فرأى انسانا يحدث آخر ويومئ بيده اليه ، فأرسل اليه يسأله عن حاله ، فقال : لي مع الملك العادل خصومة وهذا غلام القاضي ليحضره الى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ، فعاد اليه ولم يتجاسر يعرفه ما قال ذلك الرجل وغالطه ، فلم يقبل منه غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان من يده ، وخرج من الميدان وسار الى القاضي يقول : إنني قد جئت محاكما ، فأسلك معي مساتسلكه مع

غيري ، فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين ، فقال نورالدين حينئذ للقاضي ولن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ فقالوا : لا فقال : اشهدوا انني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي وانما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيث ظهر ان الحق لي وهبته وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهي درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة الى الحق ، الواقفة معه .

قال صاحب التاريخ : ومن عدله قدس روحه ونور ضريحه من نور فسيحه ، أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي جرت بها عادة الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فان قامت عليه البينة الشرعية، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتبساع الشرع المطهر .

وحكي لي من أثق به ، أنه دخل يوما الى خزانة المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه فقيل : ان القاضي كمال الدين ارسله وهو من جهة كذا ، فقال ان هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده الى صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة الى كمال الدين فرده إلى الخزانة مرة أخرى وقال : اذا سأل الملك العادل عنه ، فقولوا له عني ، انه له ، فدخل نور الدين الى الخزانة مرة أخرى فرأه ، فأنكر على النواب ، وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على اصحابه ، فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه ، وقال للرسول : قل لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا ( المال ) وأما أنا فترقتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يعاد قولاً واحداً فأعاده .



أيضا يثبتت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه ، وسلاحهم ودوابهم ، خوفا من أن حرص بعض الأمراء وشحه يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد ، ويقول : نحن كل وقت بصدد الذفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد ، نخل الوهن على الاسلام ، ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال ، وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ماخافه عيانا .

## وأما ما فعله من المصالح

الذي فعله من المصالح في بلاد الاسلام مما يعود الى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم ، ونحن نذكر طرفا منه ، فمن ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب ، حماة ، وحمص ، ودمشق ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها ، وأحكم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس .

وبنى أيضا المدارس بحلب ، وحماة ، ودمشق ، وغيرها للشافعية والحنفية .

وبنى الجوامع في جميع البلاد ، فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والاتقان ، ومن أحسن ما عمل فيه ، أنه فوض أمر عمارته والخروج عليه الى الشيخ عمر الملا رحمه الله - وهو رجل من الصالحين - ف قيل له : إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل ، فقال : إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتتاب أعلم انه يظلم في بعض الأوقات ، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم ، فإذا ظلم كان الأثم عليه لا علي ، وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم ، وبنى أيضا بمدينة حماة جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها ، وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو بغيرها .

ومن عدله ايضا بعد موته - وهو أعجب ما يحكى عنه - أن انسانا كان بدمشق غريبا قد استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين ، فلما توفي وملكها صلاح الدين ، كان اجناده وأمراؤه يفعلون ما يريدون ولا يمتنعهم ، فتعدى بعض الاجناد على هذا الرجل فشكاه ، فلم ينصفه صلاح الدين ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه ، وهو يقول : يا نور الدين ، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا ، اين عدلك عنا ، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى ، وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر الى صلاح الدين ، وقيل له : احفظ البلد والرعية والاخرج عن يدك ، فأرسل الى ذلك الرجل - وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه - فطيب قلبه ، ووهبه ( شيئا ) وانصفت ، فبكى اشد من الاول ، فقال له صلاح الدين : لم تبكي ؟ فقال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين وهذا هو الحق ، وكل ما يرى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

## فصل في ذكر بناء دار العدل

### رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

كان الملك العادل نور الدين رضي الله عنه ، أول من بنى دارا لكشف المظالم وسماها دار العدل ، وكان سبب بنائها ، أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم اسد الدين شيركوه - وهو أكبر امير معه ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك - واقتنوا الاملاك فأكثروا ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثر الشكوى إلى كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الانصاف من اسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال الى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع اسد الدين ذلك ، أحضر نوابه جميعهم ، وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا



وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنه عظيم كثير الخرج ، بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب ، بل على كافة المسلمين من غني وفقير ، ولقد جرى لي مع طبيبه ما أذكره ، وذلك أنني قدمت من زيارة بيت المقدس - بعد أن فتحه المسلمون - مريضا ، فسألت عن طبيب فدلوني على مغربي فأتيته ووصفت له مرضي ، فوصف لي وصفة لم يرضني قوله ، فعاودته القول فتركني ومضى ، فأذنت نفسي وضاعت الدنيا في عيني ، وعزمت على أن لأعالج نفسي إلا بما تنتهي إليه معرفتي ، واشتد مرضي لما نالني من الغيظ ، فلما كان الغد ، قوي عزمي على قصد طبيب يعالجني ، فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب ، فدالت على طبيب هذا البيمارستان ، فأتيته فيه وهو يكتب نسخا للمرضى الذين به ، فلما رأني قد قاربته ، أقبل على بوجه منبسط وسأيلني عن حالتي فوصفته له ، فكتب لي نسخة ، وقال لي : يحمي غلامك مـبـا في هـنـه النسخة ، فقلت : لاحتاجة بي إلى ذلك ، فقد أغناني الله عن مزاحمة الفقراء ، فقال : يامولاي ، لأشك أنك في غنى عن هذا ، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وانعامه ، والله إن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية من هذا البيمارستان ، فقلت : أنا لأرى ذلك ، فقال : انه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم ، فوجدت في نفسي بكلامه انبساط ، فحكيت له حـا كاية ذلك الطبيب ، فقال : يامولاي ، مغربي وقد أقام بالشام لا يكون إلا هكذا ، وأما أنا فما تراه في من أدب الناس فمن عندكم وبلادكم ، فإني سافرت إلى الموصل والعراق ، فشكرته وعدت عنه ، رضي الله عنه .

وبنى أيضا الخانات في الطررق ، فأمن الناس وحفظت أموالهم ، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر .

وبنى أيضا الأبراج على الطررق ، وبين بلاد المسلمين

والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي ، فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً ، وكان هذا من لطف الفكر وأكثرها ذفعا ، رحمة الله تعالى .

وبنى أيضا الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأدر عليهم الادارات الصالحة ، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويدينهم ويبسطهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له منذ تقع عينه عليه ، ويعتذقه ويجاسه معه على سجاده ويقبل عليه بحديثه ، وكذا أيضا كان يفعل بالعلماء ، من التعظيم والتوقير والاحترام ويجمعهم عنده للبحث والنظر ، فقصده من البلاد الشاسعة ، من خراسان وغيرها ، وبالجملة فكان أهل الدين عنده في أعلى المنازل وأعظمها ، فكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم ، وإذا نقلوا عن انسان عيبا يقول : ومن المعصوم ، وإنما الكامل من تعد ذنوبه .

بلغني ان بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي - وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان اليه - فحسده ذلك الأمير فنال منه يوما عند نور الدين ، فقال له : يا هذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ، ففيكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك من غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسنته ، على أنني والله لأصدقك فيما تقول : وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لا ونينك ، فكف عنه ، هذا والله هو الاحسان والفعل الذي يكتب على العيون بماء الذهب .

وبنى بدمشق أيضا دارا للحديث ، ووقف عليها وعلى من بها

من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وهو أول من بنى دارا للحديث فيما علمناه .

وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للإيتام ، وأجرى عليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة ، وبنى أيضا مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن ، ووقف على الأيتام الذين يقرؤون بها القرآن ، وهذا فعل لم يسبق إليه .

بلغني من عارف بأعمال الشام ، أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا - وهو سنة ثمان وستمائة - كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ، ليس فيها ملك غير صحيح شرعي ظاهرا وباطنا ، فإنه وقف ما انتقل إليه وورث ثمنه أو من ماغلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

## فصل في ذكر وقاره وهيبته قدس الله روحه ونور ضريحه

فإليه النهاية فيهما ، فلقد كان كما قيل : شديد في غير عذف رقيق في غير ضعف ، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فإنه ضبط ناموس المالك حتى مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها ، كان يلزمهم بوظائف الخدمة ، الصغير منهم والكبير ، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، الا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية وغيرهما ، فانهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالعود ، وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم ، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقفون له ويمشي إلى بين يديه ، ويجلسه إلى جانبه ، ويقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه ، وكان إذا أعطى أحدهم شيئا ، يقول : إن هؤلاء لهم بيت المال حق ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا .

وكان مجالسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم ، وهـكذا كان مجلسه ، لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأهـوال الصالحين ، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا .

بلغني ان الحافظ أبا القاسم ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه ، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق رأى فيه من اللغظ وسوء أدب الجلوس فيه مالاحد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين وقلة استماعهم ، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه ، فقال: نزهت نفسي عن مجالسك ، فإني رأيتك كبعض مجالس السوق ، لا يستمع به إلى قائل ولا يرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأنما على رؤوسنا الطير ، تعلقونا الهيبة والوقار ، وإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنهم لا يكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ فهكذا كانت أحواله جميعها - رحمه الله تعالى - مضبوطة محفوظة .

## وأما حفظه أصول الديانات

فإنه رحمه الله تعالى كان مراعيها لها ، لا يهملها ولا يمكن أحد من الناس من اظهار ما يخالف الحق ، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته ، وكان يببالغ في ذلك ، ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه ، وهو الأصل .

حكى لي أن انسانا كان بدمشق يعرف بيوسف بن آدم ، كان

يظهر الزهد والذسك - وقد كثر أتباعه - أظهر شبيهاً من التشبيه ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفه وظيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه : هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ، ثم نفاه من دمشق فسار عنها وقصد حران ، وأقام بها إلى أن مات ويسوق الله القصار الأعمار إلى البلاد الوخمة .

## فصل من كلام عماد الدين الكاتب فيه رحمه الله تعالى

قال العماد محمد بن حامد الكاتب - وقد ذكر نور الدين في بعض مصنفاته - فقال : كان ملك بلاد الشام ومالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم ، وأثقبهم رأياً وأنقاهم وأعدلهم وأعبدتهم وأزهدتهم وأجهدهم ، وأطهرهم وأظهرهم ، وأقواهم وأقدرهم ، وأصلحهم عملاً ، وأنجحهم أملاً ، وأرجحهم رأياً وأوضحهم آياً ، وأصدقهم قولاً ، وأقصدتهم طولاً ، وكان عصره فاضلاً ، ونصره أصلاً ، وحكمه عادلاً ، وفضله شاملاً ، وزمانه طيباً ، وأحسانه صيباً ، والقلوب بمهابته ومحبتة متمتية ، والنفوس بعاطفته وعارفته متمتية ، وأموره مقتبلة ، وأوامره ممتثلة ، وجده منزه عن الهزل ، ونوابه في أمن من العزل ، ودولته مأمولة مأمونه ، وروضته مصوبة مصونة ، والرياسة كاملة ، والسياسة شاملة ، والزيادة زائدة ، والسعادة مساعدة ، والعيشة ناضرة ، والشريعة ناصرة ، والانصاف صاف ، والاسعاف عاف ، وأزر الدين قوي ، وظمأ الاسلام روي ، وزند النجس وري ، والشرع متبوع ، والحكم مسموع ، والعدل مولى والظلم معزول ، والتوحيد منصور والشرك مخذول ولتقي شروق ، ومالفسوق سوق ، وهو الذي أعاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام ، وقد غلب الكفر ، وبلغ الضر ، فاستفتح مغالقتها ، واستخلص معاقلتها ، واستخلص

عقائلها ، وأشاع بها شعار للشرع في جميع الحل والعقد ، والابرام والنقض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع ، وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسـومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم وبيد سلوكهم ، وصان الثغور منهم ، وحماها عنهم ، وأحيا معالم العلوم الدوارس ، وبنى للأئمة المدارس ، وأنشأ الخانقاهات الصـوفية وكبـر رها ، في كل بلد وكثـر وقـوفها ووفر معروفها ، وأدى للوافدين من جنان جنابه قطوفها ، وأجد الأسوار والخنادق ، وأنى المرافق ، وحى الحقائق ، وأمر في الطرقات ببناء الربط والخانات ، فضاقت ضيوف الفضائل وفاضت فيوض الفواضل ، وهو الذي فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ دولتها ورجالها ( ١٢٠ ) .

ولو ذكرت ما قال العلماء فيه لكان مجلدات ، ولكن الاختصار الديق بما نحن فيه والسلام .

## في ذكر استيلاء أتابك سيف الدين غازي على البلاد الجزرية بعد وفاة نور الدين

كان نور الدين قبل أن يمرض ، قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها يستدعي العساكر منها ، فسار سيف الدين غازي ابن أتابك قطب الدين صاحب الموصل في عساكره ، فلما كان ببعض الطريق ، أتاه الخبر بموت عمه الملك العادل نور الدين ، فعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى بلد الخابور فاستولوا عليه ، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام ، وكان بها مملوك نور الدين في قلعتها اسمه قايمان الحراني ، فامتنع فيها ، ثم أطاع على أن تكون حران له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه ، وسار إلى الرها فحصرها وملكها ، وأرسل إلى

مدينة الرقة فملكها ، وكذلك سروج ، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر .

وكان بمدينة حلب وقلعتها الأمير شمس الدين علي بن الداية - وهو من أكبر الأمراء النورية - وهو مريض فلم يمكنه منع سيف الدين عن البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق يطلب أن يرسل إليه الملك الصالح في العساكر التي معه بها ، ليمنع سيف الدين عن البلاد ، فلم يفعل شمس الدين بن المقدم - وكان هو المرابي للملك الصالح والقائم بأمره - وخاف أن يرسله فيأخذه أولاد الداية ويسير معه إلى دمشق ويزيلوا ابن المقدم عما يتولاه .

فمكن حينئذ سيف البين من ملكها ، فلما استقام له ملك البلاد الجزرية ، قال له فخر الدين عبد المسيح - وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين ، وقصد سيف الدين ظنا منه أن سيف الدين يرعى له خدمته ، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أولا ، فلم يجن ثمرة ما غرس ، وكان عنده كبعض الأمراء - فقال له : ليس بالشام من يمنعك ، فاعبر الفرات وأملك البلاد . فأشار أمير آخر معه - وهو أكبر أمرائه - يقال له عز الدين محمود المعروف بزلف دار : قد ملكت أكثر من والدك ، والمصلحة أن تعود ، فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل ( ليقتضي الله أمرا كان مفعولا ) ( ١٢١ ) ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا ( ١٢٢ ) .

وأما أحوال من بالشام ، فإن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزدارا لها وهو سعد الدين كمشتكين - بعض خدمه الخصيان - فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدمته على مرحلة ، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب ، وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدرك ، فنهب بركه ودوابه وسار إلى حلب ، فتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته ، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح ، فسار

اليها ، فأخرج اليه ابن المقدم عسكريا فنهبوه فعاد منهزما الى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية مأخذ وجهزه وسيره الى دمشق - وعلى نفسها تجني براقش - فلما وصلها سعد الدين دخلها ، واجتمع بالملك الصالح والأمراء وأعلمهم ما في مسير الملك الصالح الى حلب من المصالح ، فأجابوا الى تسييره فسار اليها ، فلما وصلها وصعد الى قلعتها ، قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب والذي يتبعه من أحداثها ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ، ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء ( وكان أمر الله قدرا مقدورا ) ( ١٢٣ )

واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل ، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ولا يمكنه الثبات ، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذه بيده ، وبقي الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره ، وتمكن منه تمكنا عظيما يكاد يقارب الحجر عليه .

## في ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن ايوب

الى دمشق دار العشق وتملكها من يد ولد مولاه

لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح فيعاملهم بما عامل به بني الداية ، راسلوا سيف الدين ليسلموها إليه فلم يجبهم ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن ايوب بمصر ، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين محمد بن المقدم - ومن اشبه أباه فما ظلم - ( ١٢٤ ) فلما أتته الرسل بذلك لم يتوقف ، وبادر إلى الاجابة وسار إلى الشام ، فلما